

## حقيقة التوكل على الله عز وجل

إنَّ التوكل على الله وحده، وتفويض الأمور كُلُّها إليه، والاعتماد عليه في جلب النعماء ودفع الضرِّ والبلاء مقامٌ عظيمٌ من مقامات الدين الحليلة، وفريضة عظيمة يجب إخلاصها لله وحده، وهو من أجمع أنواع العبادة وأهمها لما ينشأ عنده من الأعمال الصالحة، والطاعات الكثيرة، فإنه إذا اعتمد القلب على الله في جميع الأمور الدينية والدنيوية دون مَنْ سواه صحَّ إخلاصه وقويت معاملته مع الله وزاد يقينه وثقته به تبارك وتعالى.

وقد أمر الله سبحانه بالتوكل عليه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وجعل التوكل عليه شرطاً في الإيمان، فقال تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]. فجعل دليل صحة الإيمان والإسلام التوكل على الله، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، فإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد، فالتوكل أصل لجميع مقامات الدين، ومتزلج منها كمتزلج الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.

وحقيقة التوكل هو عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضاً بما يقضيه له؛ لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّضَ إليه أموره مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها. هذه هي حقيقة التوكل: اعتماد على الله وحده لا شريك له، مع فعل الأسباب المأمور بها والقيام بها، دون تعدٍ إلى فعل سبب غير مأمور، أو سلوك طريق غير مشروع.

والناس منقسمون في هذا الأمر الحليل إلى طرفين ووسط: فأحد الطرفين عطل الأسباب محافظة على التوكل، والطرف الثاني عطل التوكل محافظة على السبب، والوسط علم أنَّ حقيقة التوكل لا تتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله في نفس السبب.

وقد جمع بين هذين الأصلين في نصوص كثيرة منها قوله - صلى الله عليه وسلم -: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»؛ رواه مسلم عن أبي هريرة، ففي قوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» أَمْرَ بِكُلِّ سببٍ دينيٍّ ودنيويٍّ؛ بل أَمْرَ بالجِدِّ والاجتهاد فيه والحرص عليه نَيَّةً وَهَمَّةً وفعلاً وتدبرًا، وفي قوله: «وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» إيمانٌ بالقضاء والقدر، وأَمْرٌ بالتوكل على الله الذي الاعتماد التام على حوله وقوته في جلب المصالح ودفع المضار مع الثقة التامة به في بحاج ذلك، فالمُتَّبع

للرسول - صلى الله عليه وسلم - يلزمـه أن يتوكـل على الله في أمر دينه وديناه، وأن يقوم بكل سبـبٍ نافـع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته.

وفي الترمذـي عن أنس بن مالـك - رضـي الله عنه - قال: قال رـجل: يا رسول الله! أـعـقلـها وـأـتـوـكـلـ، أـوـ أـطـلـقـها وـأـتـوـكـلـ؟ قال: «اعـقلـها وـأـتـوـكـلـ»، فأـرشـده - صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ - إلى الجـمـعـ بـيـنـ الـأـمـرـيـنـ: فـعـلـ السـبـبـ، وـالـاعـتـمـادـ عـلـىـ اللهـ.

وفي الترمذـي أـيـضـاـ عن عمرـ بنـ الخطـابـ - رضـي اللهـ عنـهـ - عنـ النـبـيـ - صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ - قال: «لـوـ أـنـكـمـ كـتـمـ تـوـكـلـونـ عـلـىـ اللهـ حـقـ تـوـكـلـهـ لـرـزـقـ قـتـمـ كـمـاـ يـرـزـقـ الطـيـرـ ثـغـدـوـ خـمـاصـاـ وـتـرـوـحـ بـطـانـاـ»، فـذـكـرـ الـأـمـرـيـنـ مـعـاـ، إـنـاـ غـدوـ الطـيـرـ وـهـوـ ذـهـابـهـ فـيـ الصـبـاحـ الـبـاـكـرـ هوـ سـعـيـ فـيـ طـلـبـ الرـزـقـ وـتـحـصـيلـهـ.

ورـوـىـ ابنـ أـبـيـ الدـنـيـاـ عـنـ مـعـاوـيـةـ بـنـ قـرـةـ قـالـ: لـقـيـ عمرـ بـنـ الخطـابـ - رـضـيـ اللهـ عـنـهـ - نـاسـاـ مـنـ أـهـلـ الـيـمـنـ فـقـالـ: مـنـ أـنـتـمـ؟ قـالـواـ: نـخـنـ الـمـتـوـكـلـونـ، قـالـ: «بـلـ أـنـتـمـ الـمـتـوـكـلـونـ، إـنـماـ الـمـتـوـكـلـ الـذـيـ يـلـقـيـ حـبـهـ فـيـ الـأـرـضـ وـيـتـوـكـلـ عـلـىـ اللهـ عـزـ وـجـلـ».

وـحـاءـ فـيـ "صـحـيـحـ الـبـخـارـيـ" عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ - رـضـيـ اللهـ عـنـهـمـاـ - فـيـ سـبـبـ نـزـولـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: {وـتـزـوـدـوـاـ فـإـنـ خـيـرـ الرـزـادـ التـقـوـيـ} [الـبـقـرةـ: ۱۹۷]، قـالـ: كـانـ أـهـلـ الـيـمـنـ يـحـجـوـنـ، وـلـاـ يـتـزـوـدـوـنـ وـيـقـوـلـونـ نـحـنـ الـمـتـوـكـلـونـ فـإـذاـ قـدـمـوـاـ مـكـةـ سـأـلـوـاـ النـاسـ، فـأـنـزـلـ اللهـ تـعـالـىـ: {وـتـزـوـدـوـاـ فـإـنـ خـيـرـ الرـزـادـ التـقـوـيـ}.

وـهـذـاـ يـعـلـمـ أـنـ التـوـكـلـ لـاـ بـدـ فـيـهـ مـنـ الجـمـعـ بـيـنـ الـأـمـرـيـنـ: فـعـلـ السـبـبـ، وـالـاعـتـمـادـ عـلـىـ المـسـبـبـ وـهـوـ اللهـ، أـمـاـ مـنـ عـطـلـ السـبـبـ وـزـعـمـ أـنـهـ مـتـوـكـلـ فـهـوـ فـيـ الحـقـيـقـةـ مـتـوـكـلـ مـغـرـورـ مـخـدـوـعـ، وـفـعـلـهـ هـذـاـ مـاـ هـوـ إـلـاـ عـجزـ وـتـفـرـيـطـ وـتـضـيـعـ، فـلـوـ قـالـ قـائـلـ مـثـلـاـ: إـنـ قـدـرـ لـيـ أـدـرـكـتـ الـعـلـمـ اـجـتـهـدـتـ أـوـ لـمـ أـجـتـهـدـ، أـوـ قـالـ: إـنـ قـدـرـ لـيـ أـوـلـادـ حـصـلـوـاـ تـزـوـجـتـ أـوـ لـمـ أـتـزـوـجـ، وـهـكـذـاـ مـنـ رـجاـ حـصـولـ ثـرـ أوـ زـرـعـ بـغـيرـ حـرـثـ وـسـقـيـ وـعـمـلـ مـتـكـلـاـ عـلـىـ الـقـدـرـ، وـهـكـذـاـ أـيـضـاـ مـنـ يـتـرـكـ أـهـلـهـ وـوـلـدـهـ بـلـاـ نـفـقـةـ وـلـاـ غـذـاءـ وـلـاـ سـعـيـ فـيـ ذـلـكـ مـتـكـلـاـ عـلـىـ الـقـدـرـ، فـكـلـ هـذـاـ تـضـيـعـ وـتـفـرـيـطـ وـإـهـمـالـ وـتـوـاـكـلـ.

أـمـاـ مـنـ يـقـومـ بـالـسـبـبـ نـاظـرـاـ إـلـيـهـ مـعـتمـداـ عـلـيـهـ غـافـلاـ عـنـ المـسـبـبـ مـعـرـضاـ عـنـهـ فـهـذـاـ توـكـلـهـ عـجزـ وـخـذـلـانـ، وـنـهاـيـتـهـ ضـيـاعـ وـحـرـمـانـ وـلـذـاـ قـالـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ: "الـالـلـفـاتـ إـلـىـ الـأـسـبـابـ شـرـكـ فـيـ التـوـحـيدـ، وـمـحـوـ الـأـسـبـابـ أـنـ تـكـوـنـ أـسـبـابـاـ نـقـصـ فـيـ الـعـقـلـ، وـالـإـعـرـاضـ عـنـ الـأـسـبـابـ بـالـكـلـيـةـ قـدـحـ فـيـ الشـرـعـ، وـإـنـماـ التـوـكـلـ وـالـرـجـاءـ مـعـنـ يـتـأـلـفـ مـنـ مـوـجـبـ التـوـحـيدـ وـالـعـقـلـ وـالـشـرـعـ".

إِنَّ التَّوْكِلَ مَصَاحِبُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ فِي أَمْوَالِهِ كُلُّهَا الْدِينِيَّةُ وَالْدُّنْيَا، فَهُوَ مَصَاحِبُ لِهِ فِي صَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَحَجَّهُ وَبَرَّهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِ دِينِهِ، وَمَصَاحِبُ لِهِ فِي جَلْبِ الرِّزْقِ وَطَلْبِهِ لِلْمَبَاحِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِ دُنْيَا، فَالْتَّوْكِلُ عَلَى اللَّهِ نُوعَانٌ: تَوَكِّلْ عَلَيْهِ فِي جَلْبِ حَوَائِجِ الْعَبْدِ وَحَظْوَظَهُ الدُّنْيَا، أَوْ دَفْعَ مَكْرُوهَاتِهِ وَمَصَابِيهِ، وَتَوَكِّلْ عَلَيْهِ فِي حَصْولِ مَا يُحِبُّهُ هُوَ وَيُرْضَاهُ مِنْ إِيمَانِهِ وَالْيَقِينِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجَّ وَالْجَهَادِ وَالدُّعَوَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ صَفَةُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا ثُلِيتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادُتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2].